الفصل الخامس عشر

٨٧ - الحرب العظمى فى فلسطين :

هبت عاصفة عَلَى العالم فهزمت الشرق والغرب وخطفت العقول والنهى وسلبت الألباب والحجى فأصبح المفكرون خاضعين للعاطفة الحيوانية قَرمين لسفك الدماء فأعلنت دول أوروبا الكبرى الحرب العظمى والتزمت الدولة التركية الحياد إلا أنها نظمت دوائر الرديف وحولتها إلى شعب عسكر ووزعت عَلَى جميع القرى مغلقات كبيرة مغلقة وأمرت المخاتير ألاَّ يفضوها إلا متى آذنتهم وفى ٢٨ تموز سنة ١٩١٤م استطار الشر فى الغرب وأعلنت النمسا الحرب عَلَى الصرب ودخلت ألمانيا لوكسمبورج وأنذرت البلجيك فى ٢ آب سنة ١٩١٤م وفى ٤ منهُ أنذرت إنكلترا ألمانيا ثم أعلنت عليها الحرب وفى ٦ منه أعلنت النمسا الحرب عَلَى روسيا وفى ١٠ منهُ أعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا وفى ١٢ منه أعلنت إنكلترا الحرب عَلَى النمسا وفى ١٣ منه أعلنته فرنسا على النمسا وفى ٢٠ منه احتل الألمان بروكسل عاصمة البليجك وفى ٦ أيلول سنة ١٩١٤م اجتازوا المارن.

وهناك أمرت الحكومة العثمانية بالنفير العام «سفر برلك» وجمعت كافة جنودها المعلمين وساقتهم إلى البلاد ذوات المياه وسلمتهم سلاحًا وأخذت تُمَرِّنهم عَلَى الأصول العسكرى الألمانى وشكلت لجانًا لجمع التكاليف الحربية والمبايعات وأمرتها بمصادرة جميع ما يلزم الحكومة ويوجد عند الأهالى من لباس ومأكل وحيوان ركوب أو عربة نقل فأخفى الأهلون سلعهم وقطعت عن البلاد الواردات الخارجية فتصاعدت الأسعار ودخل السكان فى أزمة لم يكونوا يتوقعونها من قبل فكنا نرى الحالة حالة حرب لكن الحكومة العثمانية كانت متحايدة حتى أتاها نبأ من السر ادورد غرى وزير خارجية إنكلترا أنهُ أخذ البارجة «السلطان عثمان»

التى تعمل لحسابهم فى مصانع ارمسترنغ الإنكليزية فأكدت له تركيا أنها تنوى المحافظة عَلَى الحياد التام وما غرضهم من تعبئة الجيش إلا ليكونوا مستعدين للمفاجآت والطوارئ(*)، فأجاب غرى أنهم مضطرون لإبقاء جميع البوارج فى مياههم وسيعوضون الأتراك ما لحقهم من الخسارة. وفى ١٠ منه دخل الطرادان الألمانيان غوين وبرسلو الدردنيل فقبلتهما الحكومة العثمانية وأعلنت فى اليوم التالى أنها ابتاعتهما. وفى ١٦ منه أبلغت دول الاتفاق الحكومة أنهن يحافظن عَلَى استقلالها وسلامة أملاكها من طمع كل عدو إذا بقيت معتصمة بالحياد مدة الحرب وفى ٩ أيلول و ١٨ شوال سنة ١٣٣٢هـ ألغت الدولة العثمانية الامتيازات الأجنبية فاستنكر هذا العمل جميع الدول حتى ألمانيا والنمسا وتحول الدردنيل والآستانة والبسفور بسرعة إلى منطقة ألمانية يسيطر عليها الألمان الذين خلقوا الأسلوب الفنى لجر الحكومة العثمانية إلى الحرب وأوعزوا إلى النسافات التركية فسطت ثلاث منها فى ٢٧ تشرين الأول على ميناء أوديسا وأغرقت سفينة وعطلت باخرة أفرنسية فغضب السفراء وقطعوا علائقهم من الآستانة وطلبوا جوازات السفر حالاً ففاز بعض الاتحاديين بأمنيتهم لاسيما أن جيشهم المدرب قد بلغ مجموعه نصف مليون جندى مسلح وربع مليون فى معسكرات التدريب فأعلنوا الجهاد العام وضربوا الطبل وامتشقوا الحسام. وانقسمت ساحات الحرب فى البلاد إلى أربعة مواضع(١) الدردنيل (٢) القفقاس (٣) العراق (٤) الحجاز وفلسطين. وإنا نترك الأقسام الثلاثة لبعدها عن موضوعنا ونتكلم عن فلسطين والثورة العربية الفتية.

تعين أحمد جمال باشا ناظر حربية الأتراك قائدًا عامًا إلى البلاد العربية وكان تحت إمرته الفيلق الرابع والجيش الثامن وهو مؤلف من ٤٠ ألف مقاتل فتأخر جمال باشا برهة وجاء البيكباشى ممتاز بك(١) «قائد ألف» فحشد من قبائل بدو

(*) كان الصدر الأعظم العثمانى مصرًا على التزام الحياد ويؤكد كل يوم لسفراء الدول أنه لا يغرر بأمته أما وزير الحربية أنور باشا وحزبه فكان همهم حمل قومهم على الانضمام إلى المانيا.

(١) ياور أنور باشا اقتداء بموسى بن نصير لما أرسل مولاه طارق بن زياد إلى الأندلس وفتحها.

السبع آلفين ما بين فرسان وركبان ومشاة واخترق الصحراء الجرداء الخالية من البشر لأن الإنكليز تراجعوا إلى ما وراء القنال ثم ورد أشرف بك[1] ومعه لفيف من الأفغان والجركس والمغاربة ومتهوسى الوطنية وكان مستشارة الألمانى هلد نغورف وبيده أمر من أنور باشا بإعطائه ما يريد ثم التحق بممتاز وأوقعوا بطلائع الإنكليز وناوشوهم مرات فلم يحلوا منهم بطائل.

وكانت الأوامر صادرة بتأسيس مداخر الأرزاق «أنابر» وبناء المؤسسات العسكرية وحفر الآبار وجر المياه وتعمير الطرقات وتشكيل «أقوال» قوافل الجمال وغير ذلك نخص كلاً من هذه المواضيع بكلمة عَلَى حدة.

٨٨ - التموين «مداخر الأرزاق» :

قبل أن تقدم الدولة العثمانية عَلَى الحرب أخبرت الأمة بإعلان النفير العام وكانت تتوقع العصيان فأطاعها الأهلون ولبوا نداءها فسرت وعينت قومسيونات «لجانًا» لجمع الذخيرة فصاروا يطوفون الحوانيت ويأخذون منها ما أرادوا ويجمعون الحيوانات والدواب والأرزاق ويقدرون الأثمان ويعطون لأصحاب السلع سندات بقيمتها حتى كثرت لديهم الأرزاق فأمروا بتأسيس مداخر لها فى كل محل وجعلوا المدخر العام فى بئر السبع فكان لا يخلو مركز عسكرى أو ملكى من أنبار ثم توسعوا فانشأوها فى الصحراء ونشروها من شمال البلاد إلى قرب قنال السويس.

٨٩ - وسائط النقل «النقليات» :

تكدّست الأرزاق فى مخازن الدولة فاحتاجت إلى ما ينقلها ويوصلها إلى الصحراء حيث الجبهة الحربية وأنى يتم لها ذلك ولا طرق عربات ولا خطط حديدية تشتبك بها البلاد وتتصل بها الصحراء فاحتاطت لتدارك هذا النقص وجمعت ما يربو عَلَى ٤٠ ألف جمل غير عجلات النقل وطابور الحمير والبغال

---

(١) جركسى الأصل ورئيس عصابة فى البلقان ومن أبطال الثورة الأنورية والإنقلاب العثمانى وكان مدرس عصابته الجلد.

والحمالة(*) وقسمتها إلى شعب وطوابير وأقوال مرتبطة ببعضها البعض وربطتها بمفتش ورقيب ألماني فكانت تسير هذه القوافل من أقصى بلدان فلسطين إلى جوف الصحراء محملة بالأرزاق والآلات فلم تف بالحاجة واضطرت الحكومة إلى مقاولة المتعهدين لإتمام هذا النقص فقصرت همتها عن إيصال المنقولات فى حينها إلى محتاجيها وقد نكبت بموت كثير من جمالها لإهمال الضباط وقلة اعتناء الأفراد بها فكنا نرى أشلاء الجيف ورممها مطروحة عَلَى جوانب الطرق متعاطفة عَلَى بعضها بعضًا. هنالك أمرت بمد الطرق الحديدية وتمهيد سكك العربات وحصرت مهمة الجمال فى توزيع الأرزاق عَلَى الجنود داخل الصحراء وورد عليها «أوتوموبيلات» ألمانية ونمساوية ولكن بعد فوات الوقت.

٩٠ - تعبيد الطرق «العمليات» :

عجزت الحكومة بواسطة الجمال أن توصل الأرزاق والمعدات الحربية إلى الجند فى وقت الحاجة إليها فأمرت بإنشاء الطرق وجمعت ضعفاءَ الجنود والعجزة الذين لم يتمرنوا ولم يتدربوا عَلَى حمل السلاح «سلاحسز» وأطلقت سجناء القدس وشكلت منهم طوابير «فرق عمال» وجهزتهم بما يلزم من الأدوات والآلات وأمّرت عليهم الضباط المتقاعدين وجعلت بعضهم لتعبيد طرق العربات وبعضهم لمد السكك الحديدية «والده قويل» وإنشاء المؤسسات فمدوا طريق القطار من العفولة إلى بيرين جنوبى الحفير يقطعها الراكب فى ثمانية أيام. وأوصلوا طرق العربات بكل مركز عسكرى أو نقطة حربية وداومت عملها حتى سئم الجنود وفروا فأجبرت الحكومة أهل القرى عَلَى تقديم عمال إليها وكانت تراقبهم بضباطها فنظمت جميع ذلك وهى عَلَى وشك الوداع.

٩١ - المؤسسات «الإنشاءات» :

لما كانت ساحة فلسطين الحربية منحصرة فى الصحراء الخالية من الموارد الطبيعية كالغذاء والمياه والبناء عزمت الحكومة العثمانية على إيجاد هذه الأشياء

(*) أشخاص يحملون الأرزاق والأشياء من القدس إلى الخليل والسبع.

فحفرت الآبار وجرت ا لمياه فى القساطل «الأنابيب» إلى مسافات بعيدة وبنت أحواضًا لسقى الحيوانات وصنابير «حنفيات» للشرب وبنوا المستشفيات ومستودعات الأرزاق ومحطات للسكك الحديدية وللبريد والبرق(*) ومحلات للضباط. واستغنوا عن كل هذا فى المدن فتبسطت واستولت عَلَى جميع المؤسسات الأجنبية وامتلكتها واستعملتها لما يلزمها فأخذت نوتردام والمسكوبية والدومنيكان ومدارس الفرير والمطران والصلاحية. وأسسوا دار الصناعة والإصلاح «معامل» فكان إذا ما تخرب شيء يعمر حالاً أو يعطى عوضه وقد اكتسب الأتراك من الألمان جرأة فعبثوا بأوروبا وافتضوا هيبتها واحتقروا عهودها وداسوا معاهداتها وعاملوا دولها معاملة النظير للنظير.

٩٢ - البعثة الألمانية العسكرية :

تسلل بعض ضباط الألمان وتجند من كان فى سورية وانخرطوا فى الجيش العثمانى فرابنا أمرهم وانتظرنا العقبى وسرعان ما رأيناهم قد انضموا إلى قائد الحدود فون كريس Kress von Kresstein فأعطى كلاً منهم العمل الذى يصلح له وفتح الخواجه «فاست» مطاعم ومنازل خصوصية لهم يأوون إليها. فلما اتصل الألمان بالأتراك أرسلوا حملات نمساوية وألمانية مؤلفة من طوابير «قطع عسكرية» وفيهم الطيارون والمدفعيون والمشاة وسائقو «الأتوموبيلات» فاستقبلهم القائد العام «فون كريس» وحاشيته بحفاوة وخطب فيهم عَلَى محطة بئر السبع فقال:

أيها الأبطال! أنتم أبناء من احتلوا باريس وشهدوا موقعة سيدان أنتم بأنفسكم قد اخترقتم قلاع البلجيك ودككتم حصونها وتغلغلتم فى أقاليم فرنسا ومزقتم جيش روسيا أنتم الذين جرعتم جميع أعدائكم الهوان وها أنا قد أتيت بكم لأنفذ بعزمكم الألمانى فى شريان إنكلترا عدوة الإنسانية ولتنتزعوا من يدها القنال وتشفرا البشرية المتألمة من ظلم واستعمال إنكلترا.. إلخ.

(*) كثرت فى هذه الحرب أسلاك البرق والتلفون والتلغراف اللاسلكى.

ثم ساروا وقد أعد لهم مخيمًا فاخرًا فكانوا ينـامون عَلَـى سـرر ويـأكلون طيـب الطعام وأعذب الشراب وكانوا أنى ذهبوا يصحبهم الرخاء وأنى ساروا يوفر إليـهم خير المآكل فطمعوا واستطالوا على الأتراك واحتقروهم فحدثت نفرة بـين الفريقـين كادت تفضى إلى سوء العقبى فأسس الأتراك جمعية فى بئر السبع غايتها مقاومـة النفـوذ الألمـانى فكبحـوا جماحـهم وخففـوا مـن غلوائـهم وظلـت الفـرق الألمانيـة والنمساوية تصحب الجيش التركى حتى الانهزام الأخير.

٩٣ - الجراد :

لم يكف الناس ما حل بهم من البلايا حتى فـاض عليـهم طوفـان مـن الجـراد فأكل الزرع والأثمار ورعى العشب وقشرَ الأشجار ثم غرس فى الأرض وباض وفرّخ فاستعد السكان لدفعهِ وقاوموه ولكن حاولوا عبثًا فانتشر ثانية زاحفـا عَلَـى الأرض وطائرًا فى الفضاء لا يأتى على شىء إلا ذهب بهِ ففزعت الحكومة وعينت جنـودًا ومأمورين ملكيين لتلافى ضرره وكلفوا أهل البلاد بإتلافهِ فعجـزوا عـن رد غائلتـه وفى الحقيقة أن من كان يـراه سـابحًا عَلَـى الأرض يتوهـم أنـها مـادت بـه أو أن هنالك بحرًا رجراجًا فتضعضعت الحالة الاقتصادية وساءت الحركة التجارية فزاد الغلاء واشتد الفقر وقحطت الأرض وقاسى الفقير الويل والعذاب.

٩٤ - الحركة الاقتصادية :

أعلن النفير العام فانقطعت الـواردات الخارجيـة وغلـت أيـدى أهـالى فلسـطين ودخلـوا فـى الجنديـة فـأهملت الأرض وقلـت الحـاصلات لاسـيما أن الحكومـة أخذت تجبى ضرائبها عينًا فتأخذ من الغـلال حصتـها وتشـترى ثلاثـة أضعافـها وزاد على ذلك ظلم المأمورين وتقديرهم الكمية بأكثر مما هى ولم تقـف أيضًـا عنـد هذا الحد بل صادرت جميع الحـاصلات وعينـت لكـل فـرد مـن الأهـالى مؤونتـه وبذاره فقط واحتكرت البقية فسئم الزارع ومل الصانع وفرغ حانوت التاجر فعمـت الطامة وجلت المصيبة وارتفعت الأسعار أربعـة أضعافـها وتعـددت حوانيـت بيـع الأثاث المستعمل Second hand فصار كل محتـاج يعـرض مـا لديـهِ ليبيعـه بثمـن بخس يشترى به قوتًا لعائلتهِ الجائعة وعظمت الرزايا بهبوط أسعار الورق النقـدى

فإن الليرة العثمانية نزلت إلى ١٨ قرشًا ومع دناءة سعرها ورخصه فإنها كانت فى جبهة الأسد «وبها تقضى الحاجات».

٩٥ - الصحة العمومية :

قلما تحدث حرب إلا ويصحبها الوباء والعلة فيقل الغذاء ويفسد الجو والصعيد فتنتشر الميكروبات وتكون الأجسام قد ضعفت عن مقاومتها فتتفشى الأمراض وتفتك الأدواء كما شاهدناه أثناء الحرب. فقد احتاطت الحكومة لمنع وقوع هذا العارض وأسست طوابير تنظيفات «كناسة» وأكثرت من الأطباء والصيادلة وأناطت بهم مراقبة الأمور الصحية فهجمت الحميات والأمراض السارية وانتشرت الدسنطاريا والكوليرا والتيفوس والتيفوئيد فحصدت النفوس ونهبت الأعمار وكنا لا نرى غير وجوه شاحبة وأجسام ضعيفة منهوكة القوى.

٩٦ - الأخلاق العمومية :

فى خلال هذا الحرب رأينا من فساد أخلاق بعض الشرقيين ما زَهَّدنا فى الحياة فإنهم نحروا الفضيلة وأقاموا الرذيلة وتبذلوا مفتخرين بالعيوب والمساوئ فسخط الفضلاء ظانين أن هذا المرض سرى بين بنى قومهم فلم يتعدهم ولم يتجاوز سواهم. فلما أتت الجنود الألمانية والنمساوية وجدناهم أحط منا وأجرؤ على ارتكاب الموبقات فحوقلنا ومقتنا أعمالهم وأخلاقهم المنحطة وسلوكهم الحيوانى وتوهمنا أن المرض التركى تمشى فى مفاصلهم وتسرب إلى آدابهم فلما قدمت الجيوش الإنكليزية المزيجة من عناصر الأرض وجدناها أدنى وأحط فلا عيب تتوقاه ولا حرام تأباه فعلمنا أن الحرب مفسدة الأخلاق وأى حرب أعظم من هذا لاسيما أن سكان المدن ومن جاوروا معسكرات الجنود كانوا أكثر فسادًا من سكان القرى البعيدة عنهم.

٩٧ - الديوان العرفى :

أعلنت الحكومة العثمانية الحرب وأمرت بتطبيق الأحكام العرفية فى جميع أقطار مملكتها فكان الديوان مؤلفًا من مجلسين: هيئة تحقيقية «اتهام» ومحكمة

عرفية فاتخذوا مركزه فى القدس بيت القسيس سايكس قبالة الكنيسة العربية. فكان جحيم المحاكم وبلية البشر. أعضاؤه ضباط عسكريون تربوا عَلَى سفح الدماء فهان عليهم القتل وسهل لديهم احتقار البشرية وآلامها. فى حكمه القضاء المبرم والموت العاجل فإذا سيق المتهم إلى الهيئة التحقيقية استنطقه الضرب بالسوط والكى بالنار والتعذيب الشديد فيعترف بالجرم المنسوب إليه وإن لم يكن فاعلاً لأن الموت العاجل أخف من العذاب المتطاول فيكتبون إقراره رسميًا ويعتبرونهُ شرعيًا ويحولونهُ بأوراقهِ إلى المحكمة العرفية فإن خالف قوله الأول نزلوا عليهِ بالسياط وإن قبله تحكم عليهِ بأقصى درجات العقاب وتحول قرار الحكم إلى الحاكم المطلق جمال باشا السفاح[1] الذى يفعل ما يشاء ويختار ما يريد فيبرمهُ بلا تردد وكم من ذنوب ارتكبوها وخطايا اقترفوها ابتغاء مرضاة السياسة فإنهم اغتنموا هذه الفرصة وأخذوا يطبقون سياسة العسف والقسر فأبعدوا الفرق العربية والجنود السورية عن بلادهم ونقلوها إلى غاليسيا والدردنيل والعراق واستبدلوهم بأتراك وألمان ونمساويين وتمردوا وجاروا فأمر جمال بمحاكمة أعضاء مؤتمر باريس ومن اشتبه بهم من فتيان العرب الناهضين وشبابهم المتنورين فنفى البعض وساق البعض إلى عالية وحاكموهم وحكموا عَلَى كثير منهم بالإعدام فتشفع فيهم جلالة الملك حسين وطلب العفو عنهم فردت شفاعتهُ ونفذ فيهم الحكم فاحتقدها وثأر لهم قائلاً:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دمًا

٩٨ - الثورة العربية:

كتم جلالة الملك حسين غضبه وغيظه واستدعى الفرقة المتطوعة[2] التى قدمها لجمال باشا بحجة أن يستبدلها بغيرها ودعا إليه ابنه فيصلاً وقطع علاقته مع الأتراك وأصغى إلى مفاوضة الحلفاء الذين قطعوا له عهودًا ومواثيق باستقلال

(١) فى سنة ١٩١٧م ضيقت سلطته وصار جرم الإعدام لا ينفذ ما لم يصدق عليه الخليفة.

(٢) كانوا يلبسون البسة بيضاء وكفافى حمرًا وهم أربعة آلاف شخص صادموا الجيش الإنكليزى وكانوا ينشدون أهازيجهم العربية ولا يتقيدون بنظام فى الحروب.

جميع البلاد العربية فـأعلن الثـورة وعضـده قسـاورة الحجـاز وعـرب الحويطـات فما كاد يبلغ هذا الخبر مسامع العرب حتى انسحبوا من صفوف الأتراك والتحقوا بهم ولم يبق منهم إلا من سدت فى وجهه الطرق فانثلمت الثغور وتعطلـت الإدارة والتحق قسم كبير من الضباط والأفراد بجيش الأمـير فيصـل وقـاتلوا وقتلـوا وظلـوا يتكاثرون إلى أن ضخم الجيش وسرت الشعلة إلى كل الجهات فاعترف أكبر قـائد فى فلسطين بقوله إن أهالى البلاد العربية أشد عداوة لنا من الإنكليز.

٩٩ - الحملات الحربية :

كان يجب أن نقدم هذا البحث عَلَى غيره لما له من الأهميـة ولكنـا فضلنـا أن نمهده بمعداته الأولية ليتنبه القارئ أن النصـر لا يكـون بكـثرة الجنـود فقـط بـل بما يلـزم لهـا مـن الذخـائر والوسـائط النقليـة والتغذيـة والاعتنـاء الصحـى والفـن العسكرى

أعلن الأتراك النفير العام وهـم بـين عـاملين الـتزام الحيـاد أو دخـول الحـرب فمازال بهم أنور باشا وحزبه حتى حملهم عَلى اقتحامها فعضدوا الألمان آملـين أن يكون لهم النصر فيسترجعوا أمبراطوريتهم العظمى فاستسلموا لهم وولوهم الأعمـال وإدارة الأمور فسيطروا عليهم حتى إن جمال باشا بعظمته كان يخشى فون كريس ولم يستطع أن يرد له طلبًا فلما اجتمع القواد للمذاكرة أصر علـى مهاجمـة القنـال بقوة كبيرة لاعتقاده أنهُ يدخل مصر بسهولة بناء عَلى استكشافاته أن قوة الإنكليز كانت ضعيفة فخالفهُ سعد الله بك رئيس اركان حرب جمال باشا وكـان رأيـه أن يرسـل بضعـة طوابـير لمشـاغلة الإنكليز ومسـاجلتهم فقـط لأنـهُ يـرى أن اخـتراق الصحراء بجيش كبير لا يرجى منهُ نفع فاستشاط فون كريس غضبا وأرغم جمـال باشا على اتباع رأيه ونبذ سعد الله وقوله وفصله من القيادة العامة ثم زحف بقـوة مؤلفة من ثلاثين ألف جندى مسلح وكان وراءهم فرقة أزمير الممتازة فوصلوا القنال وكسفوه وبعد معركة قليلة فشل العثمانيون وعادوا أدراجهم ولكـن «فـون كريـس» بقى مخلصا فى الامر يتردد على جميـع مراكـز الصحـراء ويشـير علـى الإنكليز

ويشاغلهم بأربعة طوابير فقط وقد استدرج الإنكليز مرة وأوقع بهم فى قطية وأسر منهم أميرالاى وضباطًا وجنودًا ولكنهُ لم يعق سيرهم فتقدموا بطريقهم الحديدية ومياههم النيلية إلى أن بلغوا العريش واحتلوها وأخرجوا الأتراك من الصحراء وانقضوا عَلَى غزة فكادوا يمتلكونها ثم خسروا الموقعة واستطال العراك فلم يظفروا بحاميتها وثبتت أمامهم فالتفوا حول جناح الأتراك الأيسر «السبع» وعطفوا عليه فانسحب إلى الوراء وتراجعت القوات إلى الشلالة ثم وادى الصرار وهناك انشطرت إلى شقين أحدهما ارتد لحماية القدس والآخر ساح فى سهول طولكرم فتعقب الإنكليز الشق الأول وأوقعوا به فى بيت عور والنبى صمويل وحصروا القدس ودخلوها فى ٩ كانون أول سنة ١٩١٧م وظلوا يدحرون فلول الجيش إلى أن رسخ عَلَى خط متعرج فخندق الإنكليز أمامهم من السلط إلى سنجل ودير غسانه ومجدل يابا وحرم على بن عليم وطال بالمقاتلين المقام وهم فى سجال حتى اخترق فرسان الإنكليز خط طولكرم واكتسحوا الجيس التركى وأسروا أكثره وقابلهم الجيش العربى فى ذرعاه فاشترك معهم وهجموا على سورية يطاردون الأتراك فاخرجوهم من البلاد العربية وتولى الإدارة فى سورية جلالة الملك فيصل وفى الساحل فرنسا وفى فلسطين إنكلترا.

انحسر الأتراك عن بلادنا ولم يتركوا لنا شيئًا من المدنية. حكمونا ٤٠٠ سنة فأين ثكناتهم العسكرية؟ وأين طرقهم العمرانية؟ أين مدارسهم ومعاهدهم العملية؟ أين آثارهم الفنية وإصلاحاتهم المدنية؟ لا شىء من هذا.

سلم الأتراك للحلفاء مطاليبهم فعقدوا المؤتمرات وحكموا عليهم فى مؤتمر سيفرونان ربمو وفرسای بنزع جميع أملاكهم فى أوروبا وإعطائها لليونان وتكون الأستانة والمضايق تحت مراقبة الحلفاء ومنطقة أزمير لليونان وأضاليا لإيطاليا وكليكيا لفرنسا وسلخت عنها جميع جزر الأرخبيل وسائر البلاد العربية والكردية والارمنية وأجبرت تركيا على التنازل عن جميع حقوقها فى كل بلادها المحتلة من إنكلترا وفرنسا وايتاليا وقبلوا ذلك إلا أن البطل التركى مصطفى كمال باشا

أبى أن يقر الذل فى أمتهِ وانسحب إلى الأناضول والتف حوله خيرة قومه وأصبح جيشه عَلَى قوة مدهشة وساعدته السياسة عَلَى ذلك فاخرج إيطاليا من أضاليا وفرنسا من كليكيا وحارب اليونان وقذف بهم فى اليم واحتل الآستانة وحصن عدويتها وقبل الحلفاء مندوبيه فى مؤتمر لوزان بعد أن رفضوا وألغى المعاهدات الأولى.

١٠٠ - الهجرة :

ما قرب الجيش الإنكليزى من بلاد مستحكمة إلا وظن الأتراك أن أهلها يضمرون لهم سوءًا فيفرغونها من السكان ويأمرونهم بالمهاجرة إلى بلاد قاصية فقد هاجروا غزة ويافا وأكثر القرى التى كانت تقع عَلَى خط النار أو بين الخطين خشية اتصال الجواسيس أو نقل الأخبار فلما أتى الإنكليز وجدناهم يعقبون عين تلك السياسة ونفس هذه الإدارة فإنهم ما دخلوا قرية إلا أخرجوا أهلها منها واعتقلوا كثيرين فضاع أثاث الأهالى وفقدت سلعهم وكم بناء هدم فى سبيل الحرب.

١٠١ - لمحة اجتماعية :

لم نحلم بما كان مخبئًا لنا فى لوح الغيب فقد جاءت الحرب وجاء معها الشقاء ففقد من البلاد الكبريت والكاز والسكر والقهوة والأرز وغير ذلك من الواردات الخارجية فتبرم الناس من ذلك ثم ألفوه واستعاضوا عنهُ بغيره ولكن قلت الضيافات والزيارات وعذر بعضهم بعضًا وقصر اللسان عن اللوم فبرزت المخدرات إلى العمل وتسابقن فى جلب المعاش وإحراز القوت [إلا أن الفلاح صاحب الحاصلات ظل حاله مستورًا] وقد كنا نرى النعل مرقعة واللباس مرفوًا والطربوش مقلوبًا حتى إن المسافر يخلع نعله توفيرًا.. ولكن اجتماع الجنود والأهالى بعضهم البعض أكسبهم فائدة الاقتباس وشاهدوا الألمان واحتكوا بهم فنقلوا عنهم كثيرًا وساروا خطوة واسعة إلى الأمام فالقروى الساذج الذى

عاشر المدني قبس عادته وما حسن لديهِ وأبناء المدن الصغيرة سرت لهم العدوى لما عاشروا أبناءَ بيروت ودمشق وحلب واجتذبوا منهم الحسن ودبت فيهم ريح الحركة من الألمان وكذلك الإنكليز ثم أبصروا مساوئ غيرهم فعلموا أنهم بشر ليسوا بخير منهم فلم يفضلوهم على أنفسهم وطمحوا إلى مساواتهم.

obeikandl.com